مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

جوانب من الواقع الأندلسي

في القرن الخامس الهجري

تأليف الدكتور، محمد بن عبود

صدر كتاب (جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري) في تطوان بالمغرب عام 1987 م تحت إشراف المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط، وهو من تأليف الدكتور/ محمد بن عبود الأستاذ بالمعهد. وقد سبق للمؤلف أن نشر عام 1983 م كتاب (التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف)، وهو الأطروحة التي تقدّم بها للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة أدنبرة باسكتلندة عام 1978 م.

يشتمل كتاب (جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري) على مقدمة وعلى أربعة فصول سبق أن نشرت بلغات أجنبية في عدد من المجلات العلمية المتخصصة ثم ترجمت إلى اللغة العربية ونشرت الآن في هذا الكتاب، الذي يضمّ 280 صفحة من القطع المتوسط.

يدور الفصل الأول من الكتاب حول العصبية والعلاقات الاجتماعية في الأندلس في عهد دول الطوائف. وفيه يخلص المؤلف إلى أن المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري لم يتميز بالعصبية العرقية. ويلاحظ المؤلف غياب العصبية في كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة، كابن حيان وعبدالله بن بلقّين، كما يرى بأن العلاقات بين ملوك الطوائف لم تقم على أساس عرقي. فعبدالله بن بلقّين أمير غرناطة

الصنهاجي قامت علاقاته ببقية ملوك الطوائف على أساس المصلحة لا على أساس العرق. ولم يكن للعصبية في رأي المؤلف ـ مكانة في فكر ابن حيان التاريخي ومنهجه، إذ كان ابن حيان مؤرخاً عقلانياً.

أما الفصل الثاني من الكتاب فيتناول الاتجاهات الاقتصادية في الأندلس في عهد دول الطوائف. وفيه حاول المؤلف معرفة طبيعة العلاقات الاقتصادية بين دول الطوائف وبين الممالك المسيحية في شمال أسبانيا مركّزاً على أثر الجزية التي فرضها الفونس السادس ملك قشتالة وليون على ممالك الطوائف، مما أضعفها سياسياً وعسكرياً. وبعد أن يستعرض المؤلف النشاطات الزراعية والصناعية والتجارية في عصر ممالك الطوائف يقرر بأن العصر الذي تلا فترة رخاء الأندلس على عهد بني أمية تميّز بتدن اقتصادي مستمر وتدريجي، نتيجة للبذخ والتبذير وسوء التخطيط، وفداحة الجزية المفروضة على عدد من ممالك الطوائف من قبل ملك قشتالة وليون. وعلى ذلك فإن هذه العوامل الاقتصادية هي التي تقدّم لنا أكثر من غيرها التفسير الأساسي لسقوط دول الطوائف المفاجىء، إذ كانت قوتها الاقتصادية قد وصلت إلى الحضيض عند استيلاء الفونس السادس على مدينة طليطلة عام 1085 م.

ويتناول المؤلف في الفصل الثالث من الكتاب الدور السياسي والاجتماعي لعلماء الأندلس وفقهائها في عهد دول الطوائف. وفيه يحاول أن يحدّد الموقف السياسي لهؤلاء العلماء من ملوك الطوائف، وتحوله من مواقف فردية إلى موقف موحّد معاد لهؤلاء الملوك بعد تفاقم خطر الفونس السادس وتهديده المباشر لممالكهم، وبعد ظهور المرابطين ونجاحهم في درء الخطر النصراني، وفي توحيد الأندلس والمغرب في إطار شرعي.

ويرى المؤلف أن دور العلماء والفقهاء كان دوراً حاسماً في مواجهة حركة الاسترداد ـ الإسبانية، فهم الذين كانوا من وراء الاستنصار بالعاهل المرابطي يوسف بن تاشفين، كما شارك عدد منهم واستشهد ـ في وقعة الزلّاقة، ثم أنهم هم الذين افتوا للملك المرابطي بشرعية خلع ملوك الطوائف وتوحيد ممالكهم بعد تقصيرهم في الدفاع عن رعاياهم.

إننا لا نتفق مع المؤلف في قوله بأن الصمت طبع موقف العلماء خلال عهد الطوائف (ص 170)، فهذا القول لا ينطبق بحال على المواقف المعادية لملوك الطوائف، وهي المواقف التي تبناها أعلام أندلسيون كأبي الوليد الباجي، وابن حزم القرطبي، وابن إسحق الالبيري. كما إننا لا نشاطر المؤلف قوله (ص 172) بأن نجاح المذهب المالكي وتطبيقه على عهد الطوائف من الأسباب الرئيسية التي دفعت يوسف بن تاشفين إلى اختيار المذهب المالكي واتخاذه

مذهباً رسمياً إثر ضمّ الأندلس للمغرب. فالدولة المرابطية قامت أساساً على المذهب المالكي الذي رسّخه بين قبائل المرابطين في المغرب المصلح الفقيه عبد الله بن ياسين.

وفي الفصل الرابع من الكتاب يتحدث المؤلف عن التاريخ في الأندلس في عهد دول الطوائف، ويحلّل العوامل التي مكّنت التاريخ الأندلسيّ في القرن الخامس الهجري من بلوغ الأوج مستشهداً بكتاب «التبيان» لعبد الله بن بلقين آخر أمراء بني زيرى في غرناطة ومبرزاً خصائص الكتاب من دقة منهجية وتعمق، وتركيز على التاريخ لمملكة غرناطة دون إغفال الجوانب الاقتصادية والاجتماعية من هذا التاريخ.

وقد استوقفنا في هذا الفصل عبارة المؤلف التي يقول فيها أنه (لا نتوفّر حالياً على تآليف يعود تاريخها إلى القرون الوسطى في التاريخ الاقتصادي). والواقع أنه تتوفر للباحث في هذا المجال مصادر لا يستهان بها، وفي مقدمتها كتب الحسبة والفلاحة والجغرافيا. كما أن للمقريزي كتاب (إغاثة الأمة بكشف الغمة) وفيه يؤرخ لتاريخ مصر الاقتصادي من الفتح العربي إلى زمن المؤرخ، أي إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

إن مأخذنا على الكتاب الأخطاء اللغوية وكذلك الأخطاء في كتابة أسماء عدد من الأعلام والمدن الأندلسية، ومن هذه الأخيرة على سبيل المثال: الفقيه ابن الأحسن السلجماسي لا ابن إسحان، والمؤرخ ابن الصيرفي لا ابن السيرفي، والقوط الغربيون لا الويزقوت، وقلمرية لا كومبر، ومرسية لا مورسية. كما ينبغي عند الاقتباس من مصدر عربي ككتاب (التبيان) الرجوع إلى الأصل العربي لا ترجمة النص المقتبس من لغة أجنبية إلى اللغة العربية.

ومع ذلك فإن البحوث الأربعة التي ضمّها الكتاب هي دراسات تتميّز بالتحليل والعمق لتاريخ فترة ممالك الطوائف في الأندلس، وستساهم دون شك في إثراء تفهمنا لتاريخ هذه الحقبة المهمة من حقب التاريخ الأندلسي، وبخاصة جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية.

الدكتور أمين توفيق الطيبي
جامعة الفاتح: الجماهيرية العظمى